أدب القصص عند العرب

بقلم الدكتور عبد العزيز عبد المجيد

١ - مقدمة

منذ اربع سنوات ظهر بالانجليزية كتاب مترجم عنوانه بالعربية « حكايات لبعض قبائل العرب» (١) . وهو مجموعة قصص صغيرة ممتعة لا تزال متداولة في اسمار بعض القبائل العربية بجنوب العراق ، جمعها المؤلف وترجمها الى الانجليزية ثم نشرها . ويقول المؤلف – المستر كامبيل – في مقدمة كتابه : « ان حياة القبيلة العربية قد بدأت في التغير ، فبعد ان كانت الآبار والامطار هي المصدر الوحيد للسقاية في البادية حلت محلها المضخات الرافعة التي تروي مساحات واسعة من الارض بسرعة غريبة . وبعد التجول طلباً للمرعى بدأت بعض القبائل في الاستقرار . وبعد ان كانت الليالي تمضي في الاستماع للقصص والاحاديث الممتعة يسردها القصاص والرواة في اسمار المساء صار من السهل على شبان القبيلة ان يركبوا (اللوري) او السيارة العامة ويذهبوا لأقرب مدينة حيث يستطيعون مشاهدة بعض الافلام السينمائية . »

ان هذه الظاهرة الاجتماعية العربية التي بدأت في الاختفاء – ظاهرة اجتماع السمار لسرد القصص وسماعها – قديمة قدم الشعوب العربية نفسها . فلقد كان للعرب قبل الاسلام اسمارهم المسائية ، يجتمع ابناء القبيلة او الاسرة حول موقد النار ، تحت الخيمة او في الخلاء ، يسرد عليهم الراوي ، والقاص اللبق اساطير الاولين ، ما حدث لطسم وجديس وسد مأرب وبلقيس ، وما جرى في ايام العرب وحروب القبائل بعضها ضد بعض ، كحرب البسوس ويوم ذي قار ويوم داحس والغبراء ، وما كان بين العرب وجيرانهم الفرس والروم من وقائع وغارات . وكانت مخيلة الراوي لا تقف عند ما يعرف وما لا يعرف من الوقائع التاريخية ، بل كان يبتكر ويخلق من الحوادث الغريبة ، والخارقة احياناً ، ما يلهب اهتمام السامع وخياله ، وما يستبقي رغبته في الاستزادة من القصص .

ولقد ورث الادب العربي عن الجاهلية كثيراً من ادب الاسطورة وادب القصص الخرافي . وذلك مثل ما نجده في كتاب «الاكليل» للهمداني ، وكتاب «التيجان» لعبدالملك بن هشام ، وكتاب «اخبار اليمن» للجرهمي . وما زالت هذه الكتب تقرأ وتدرس على انها نوع من القصص التاريخي الذي وإن أعوزه الدليل فقد كان يعتقد في صحة حوادثه من سبقونا من الادباء والمؤرخين . ومما يؤسف له ان يد التحقيق والتمحيص لما تمتد بعد الى هذا الادب التاريخي الاسطوري ، فتغربله وتعزل ما فيه من القصص الخرافية التي كانت شائعة متناقلة بين العرب قبل الاسلام وبعده . ففي هذه الكتب مادة غزيرة من القصص الخرافية والاساطير ، لو استخرجناها وهذبناها لصارت في ثوبها الادبي الجديد ادباً خرافياً راقياً يضارع او يقارب ادب الخرافة عند الامم الاخرى .

ولم يحظر الاسلام سماع الاقاصيص الصادقة ، بل عمل على تشجيعها لما فيها من التسلية البريئة ، ولأنها كانت عاملاً من عوامل الحث على الفضيلة والحض عن الرذيلة . وقد روي ان عمر بن الخطاب اذن لسليمان بن عتر التجيبي – وكان قاضياً في مصر – ان يقص على الناس في مسجد عمرو . ويحدثنا المؤرخون ان افضل لذات معاوية بن ابي سفيان كانت المسامرة وسماع احاديث من مضى . وانه ارسل الى الرقة في طلب عبيد بن شربة الجرهمي – وكان قد ناهز الثمانين – ليكون سميره ومحدثه بأخبار العرب وقصصها . ونهج الخلفاء والامراء العرب منهج معاوية ، فكانوا يجمعون حولهم الرواة والقصاص ليسلوهم بطريف الحكايات والنوادر والقصص . وكتاب الاغاني ملىء بهذه الاسمار .

ومنذ القرن الأول للاسلام ظهر نوعان من القصص . النوع الاول القصص الاخباري الجاد الذي يعتمد في غالبه على التاريخ والوقائع المشاهدة او المنقولة . والنوع الثاني القصص الفكاهي المسلي . ورحبت اللغة العربية بترجمة النوعين من الادب القصصي اليها . وكتاب كليلة ودمنة ، والف ليلة وليلة من النوع الفكاهي المسلي الذي يدرك سامعه بعده عن الحقيقة ، حتى لقد كان يطلق على حكايات الف ليلة وليلة «خرافات» كما يقول المسعودي . وظهر من الادباء العرب من اقبلوا على تصنيف هذه القصص الخرافية وتسجيلها . وذكر ابن النديم في الفهرست باباً لكتب الاسمار والخرافات المعروفة في عهده . وقال ان محمد بن عبدوس الجهشياري قد ابتدأ بتأليف كتاب اختار فيه الف سمر من اسمار العرب والعجم والروم وغيرهم ، كل جزء قائم بذاته . واحضر المسامرين فأخذ عنهم احسن ما يعرفون . فاجتمع له في ذلك اربعمئة ليلة وثمانون ليلة ، كل ليلة سمر تام . ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه من تتمة الف سمر .

ويظهر ان قصص الفكاهة والخرافة طغى عند العامة على القصص الواقعي الجدي . وانتشر القصاص للتسلية والتفكيه في الميادين والشوارع لدرجة خشي معها العلماء والفقهاء ان ينصرف الناس عن العلم وعبادة الله . فحاربوا هؤلاء القصاص . ويحدثنا الطبري في تاريخه ان السلطان امر سنة ٢٧٩ بالنداء بمدينة السلام ان لايقعد قاص على الطريق ولا في المسجد الجامع . ولكن هذا لم يمنع ان وجد في المجتمع العربي طبقتان من محبي الادب القصصي : طبقة تميل الى سماع القصص الخرافية والغرامية وسير البطولة وهي الطبقة الشعبية ، وطبقة تنكر هذا النوع من القصص لما فيه من ملهاة عن العلم وذكر الله ، وتحبذ القصص الوعظي او التاريخي ، وهي طبقة الفقهاء والمحدثين . ولقد قوبل الحريري حينما سرد على الناس مقاماته في مسجد البصرة وخارجه بالاعتراض من فقهاء عصره بالرغم من علو مكانته في الادب واللغة ، ومن كثرة من اقبلوا على سماع مقاماته . وهو يدافع عن نفسه في مقدمة المقامات فيقول : على اني وان أغمض لي الفطن المتغابي ، ونضح عني المحب المحابي ، لا اكاد اخلص من غمز جاهل ، يضع مني لهذا الوضع ، ويندد بانه مناهي الشرع . ومن نقد الاشياء بعين المعقول وضع هذه المقامات موضع الافادات وسلكها مسلك الحكايات الموضوعة عن العجماوات والجمادات

نعم بالرغم من معارضة الفقهاء والمحدثين انتشر القصص الخيالي والخرافي . ومن الغريب اننا نجد بعض المفسرين ، وهم من طبقة المنكرين على الادب الخرافي ، لم ينجوا منه . فقد استعانوا بكثير من الاساطير والاسرائيليات في تفسيرهم القرآن . ولا شك ان ذلك وقع منهم بحسن نية .

لم يقف تيار القصص والحكايات الجديدة والخرافية في عصر من عصور

(1) Tales from the Arab Tribes : by C. G. Campbell. Published by Lindsay Drummond, London.

الادب العربي . فقد انصرف بعض المؤلفين ممن يميلون الى الجد الى جمع حكايات وقصص اعتقدوا واقعيتها او نبالة مغزاها الخلقي والاجتماعي ، فدونوها في كتب لا يزال بعضها بين ايدينا مثل كتاب «فاكهة الخلفاء» لابن عربشاه ، والمستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي ، وجوامع الحكايات للعوفي . وصارت هذه المجموعات من كتب الادب القصصي الجدّي ، الذي يقرأه الخاصة من المتأدبين . والى جانب هذا النوع من القصص الجدي ، المسجل بفصيح اللغة ، نجد القصص الشعبي الذي يغلب عليه الخيال والخرافة ، كسيرة سيف بن ذي يزن ، وابي زيد الهلالي ، والزير سالم ، وعنترة ، وعمر ابن ابي ربيعة . وقد اقبل جمهور الشعب على هذا النوع من الادب القصصي اقبالاً عظيما ، وصارت له مجالس عامة في الطرقات واسمار خاصة في البيوت . ومما يذكر في كتاب الف ليلة وليله ان مملوكاً دخل دمشق يبحث عن حاجة لسيده فلم يجدها . فلما اراد ان يرحل عنها لقي شابا يجري في الطريق ، ويتعثر بأذياله . فقال له المملوك : ما بالك تجري وانت مكروب والى اين تقصد ؟ فقال له الشاب : هنا شيخ فاضل ، يجلس كل يوم على كرسي في مثل هذا الوقت ، ويحدث حكايات واخباراً واسماراً ملاحاً . وانا اجري حتى اجد لي موضعاً قريباً منه ، واخاف ان لا اجد لي موضعاً من كثرة الخلق . ولما زار ادوارد لين مصر في اوائل القرن الماضي وجد مقاهيها ملأى بالقصاص والمسامرين ممن يروون قصص ابو زيد الهلالي وامثالها .

وبعد فقد احتلت القصة بأنواعها – الخيالية والواقعية ، الطويلة والقصيرة – مكاناً لا بأس به في الادب العربي حتى منتصف القرن الماضي .

ولكن هل كان القصص في تلك العصور فناً من فنون الادب المقصودة زاوله الادباء وألفوه كما ألفوا الخطب والرسائل ؟ ثم ما موضع الأدب القصصي من ادبنا العربي الحديث ؟

٢ – إنشاء القصص والمقامات قبل العصر الحديث

ان من يستعرض ما وصل الينا من ادب القصص العربي منذ الجاهلية الى اوائل القرن الماضي يستطيع ان يتبين فيه صنفين : صنفاً مترجماً من الآداب الاجنبية ، وذلك مثل كليلة ودمنة ، ومرزبان نامه ، وأمثال لقمان ، وبعض حكايات الف ليلة وليلة ، وصنفاً آخر عربي الاصل كقصة زرقاء اليمامة ، وعمر بن ابي ربيعة ، والزير سالم . وكلا الصنفين يمكن تقسيمه بصفة عامة الى نوعين : اولهما شعبي ، الغرض منه التسلية والمتاع بما يثيره في القارىء او السامع من الغرائز والعواطف النبيلة ، كغريزة المقاتلة او الغريزة الجنسية او غريزة الضحك ، وعاطفة الحب او الدفاع عن الجار والعرض والوطن . نجد هذا في قصص أبي زيد الهلالي ، وسيف بن ذي يزن ، وعنترة ، وفي نوادر جحا . واسلوب هذا النوع من القصص شعبي يسهل على العامة فهمه حتى ولو خالف قواعد النحو والصرف وموازين الشعر . والنوع الآخر وعظيّ او إخباري الغرض منه التهذيب الخلقي والتثقيف العلمي ، وقد يكون للتسلية الفكرية . وله عادة مغزى يرمي اليه ؛ مغزى يتناسب مع التعقل والحكمة . واسلوبه عربي فصيح ، لأنه اسلوب الخاصة . ومن هذا القصص ما هو جدي واقعي او في حكم الواقعي ، وذلك مثل «جوامع الحكايات ولوامع الروايات» للعوفي ، و«المستطرف في كل فن مستظرف» للابشيهي ، و«الفرج بعد الشدة» للتنوخي . ومنه ما هو خيالي ككتاب كليلة ودمنة وقصة الانسان والحيوان من رسائل اخوان الصفاء .

ونعود بعد هذا التقسيم الى سؤال ورد في المقدمة وهو : أكان القصص في تلك العصور فناً من فنون الأدب المقصودة زاوله الادباء وألفوه كما ألفوا الخطب والرسائل مثلاً ؟ واذا كان كذلك فمن منشئو هذا القصص العربي الاصيل الذي ذكرناه ؟ والجواب عن هذا السؤال يستدعي ان نبحث اولاً عمن ألف القصص الشعبية التي اشرنا اليها ، وعمن ألف القَصَص التهذيبي الوعظي والحكايات الجديدة والنوادر التي لدينا منها مجموعات مطبوعة . ان الباحث عن منشئي القَصص الشعبي في الأدب العربي ليعجز عن العثور عليهم . وذلك لأن القصص الشعبي هو من انتاج الشعب نفسه ، من خياله ولغته . يبدأ عادة نواة صغيرة قد يكون لها بالواقع صلة ، وقد تكون محض خرافة تاريخية . ثم تنمو هذه النواة بالزيادة والتغيير والمبالغة التي ترضي كبرياء الشعب في عصور تالية . ولأن هذا الأدب ملك الشعب يسهل ان تمتد اليه يد التغيير في الموضوع والأسلوب . وليست هذه الحال مقصورة على القَصَص الشعبي العربي بل هي حال القَصص الشعبي في كل الأمم ، كقصة الملك آرثر وقصة روبن هود في الأدب الانجليزي . ولذلك لا نستطيع ان نقول مَنْ ألف قصص سيف ابن ذي يزن ، او قصة عنترة ، او قصص بني هلال . نعم ورد في تاريخ الأدب العربي ان الاصمعي واباعبيدة كانا من رواة بعض القصص العربية ، ولكن الرواية غير الانشاء . كما يعزى للأصمعي – وهو ممن عاش في اواخر القرن الثاني واوائل الثالث الهجري – رواية قصة عنترة ، وان الخليفة العزيز بالله الفاطمي أمر الشيخ يوسف بن اسماعيل ان يكتب للناس هذه القصة ، وتوزع في الاسواق حتى ينصرفوا عن اللغو فيما حدث من ريبة بدار الخليفة . ولكن القصة نفسها اقدم من الاصمعي ومن يوسف بن اسماعيل . ثم من هو يوسف بن اسماعيل بين منشئي الأدب العربي ؟ لم يكن كل من الاصمعي ويوسف إلا ناقلاً للقصة او مهذباً لها على الاكثر . اما النوع الوعظي التهذيبي فيصعب كذلك ان نعزوه إلى اديب أنشأه إنشاء بخياله واسلوبه . والدارس لمجموعات هذه القصص والحكايات يجد ان مؤلفيها

إنما هم في الواقع جامعون ومصنفون ، ونصيبهم من الابتكار والانشاء في هذه المجموعات قليل كل القلة . وهم يعترفون بذلك في مقدمة هذه المجموعات .

يحدثنا ابن عربشاه في مقدمة كتابه « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » : ان عقول البشر لم تهتد إلى الحِكَم والعبر ، ولذلك قصد طائفة من الحكماء إبراز شيء منها في حكايات على ألسنة الوحوش والبهائم والطير حتى تُصغي الآذان لسماعها ، وتتلقى القلوب مابها من حكمة ومكارم اخلاق . وفي مثل هذه الحكايات ماترتاح النفوس لسماعه وذلك ككتاب كليله ودمنة ، وكتاب سلوان المطاع . ويقول : « وهذه المصنفات تقادم عليها العهد ، فاقتطعتُ من زمني قطعة ، وجمعت ما بلغني من الحكايات والنوادر ، ووضعت هذا الكتاب عبرة لأولي الألباب » . فهو بهذه العبارة صريح في انه جامع لما في الكتاب من حكايات . بل لقد كشف البحث عن ان معظم ما في الكتاب إنما هو ترجمة لمرزبان نامه . وشبيه بهذا التصريح ما نجده في مقدمة كل من كتابيْ الفرج بعد الشدة ، ونِشوار المحاضرة للتنوخي . ويعترف هؤلاء المؤلفون الجامعون عند نقل كل حكاية باسم الراوي لها ، فيقولون مثلًا : اخبرني فلان عن فلان او ما اشبه ذلك .

ولكن أليست المقامات نوعاً من القصص القصيرة ، ولها كتّاب معروفون مشهورون ؟ نعم للمقامات منشئون متميزون . وإنشاء المقامات فن بارز من فنون الأدب العربي جدير بالدرس لمعرفة نصيبه من الأدب القصصي .

المقامة فن عربي صميم ليس للأدب الفارسي اثر في نشأته ونموه ، كما يظن بعض مؤرخي الأدب العربي . ودراسة هذا الفن تتناول ناحيتين : ناحية الموضوع وناحية الأسلوب . اما الموضوع فحادثة أو مغامرة او حيلة خادعة او نادرة طريفة او لغز لغوي او لطيفة ادبية او حجة نحوية تصدر من شخص بذاته هو بطل المقامة . وهذا البطل يظهر غالباً في جميع المقامات التي ينشئها الكاتب . فهو في مقامات بديع الزمان الهمذاني ابو الفتح الاسكندري ، وفي مقامات الحريري ابو زيد السروجي وهذا البطل شبيه بالصعلوك ، او المستجدي ، او الألعبان ذي الحيل والدهاء . وهو دائم الترحال بين البوادي والمدن . يرتاد المجالس في المساجد والميادين والدكاكين ، ويعيش على ما يكتسبه من عَرْض حيله ومغامراته . وفي كل مقامة وصف لناحية من نواحي المجتمع كما عرفه منشيء المقامة في ذلك الوقت .

وكل هذه الحوادث والمغامرات والنوادر والحيل التي تتضمنها المقامات يرويها للمنشيء راوٍ واحد هو عيسى بن هشام في مقامات البديع والحارث بن همّام في مقامات الحريري . وهذا الراوي قد طوّحت به الأسفار حيث يلتقي في كل مكان بحل به ببطل المقامة المتنكّر الذي لا تتجلى حقيقته للراوي إلا بعد ان يمثل دوره . أما الأسلوب فإن كل مقامة تبدأ بعبارة « حدثنا فلان » وهو الراوي . ثم يستمر المنشيء مُسنداً الحديث الى الراوي وعارضاً كل ما وقع من حوادث قام بها البطل . والاسلوب سجع متكلف مثقل بالألفاظ الغريبة والأمثلة والأشعار . فلغة المقامة إذاً لغة الخاصة من المثقفين في اللغة العربية وآدابها حتى في ذلك العهد الذي أُنشئت فيه . والسبب في هذا يرجع الى الظروف التي نشأت فيها المقامة .

كان القصاص منذ القرن الاول للهجرة قد أخذوا في الكثرة ، وصار منهم الخاصة الذين يقصّون في المساجد والعامة الذين يقصون في الميادين والطرقات . وكان خاصة القصاص يعمِدون الى الوعظ في حكاياتهم في اسلوب خطابي من السجع المصطنع ، على حين كان عامة القصاص لا يتورعون عن اختلاق الحكايات ، بل والأحاديث النبوية ، وتمويه الوقائع يزعمون انها حدثت فعلًا ، وينسبونها الى رواة حدثوهم بها . وربما كان هؤلاء الرواة قد ماتوا فلا يمكن تحقيق الرواية . فكان ظهور المقامات في ذلك الوقت نتيجة طبيعية لهذين النوعين من القصص الخاص الوعظيّ الجديّ الواقعيّ بأسلوبه المسجع ، والعام المختلق المموه غالباً . ظهرت المقامة جامعة بين الجد والهزل والحقيقة والخيال . فيها « حدّثنا الراوي فلان » جرياً على سنة العصر من إسناد الحكاية الى راوٍ . ثم فيها وصف متخيل للحياة الواقعية ، وصف امتزج فيه الجد بالهزل ، والأدب بالدعابة . ودار كل هذا حول شخص خيالي هو بطل المقامة . واحتوت بعض المقامات على العظة والتهذيب . ووضعت المقامة في اسلوب الخاصة المسجوع . وحُمِّلت من غريب اللغة ونادر التعابير ما يُسبغ عليها مسحة الوقار اللغوي في نظر ادباء العصر .

وسواء أكان بديع الزمان قد أفاد في إنشائه المقامات ممن سبقوه او تتلمذ عليهم كابن فارس او ابن دريد او الخوارزمي او لم يُفِد ، فإن له الفضل في اعطاء هذا الفن الجديد في الأدب العربي القالب القصصي الطريف . ويعترف الحريري بانه مقلد له . والمقامة على ما بها من عنصر القصص لم تستطع ان تجذب

يقظة

يا سورةً في دمائي ، كنتُ أجهلها
أحسُّ فيكِ دبيبَ الحبِّ يتّئِدُ
أحسُّ دلقَ الضيا في شاطيءٍ أبدٍ ،
كقِدَّةٍ من حيـــاة فيكِ تتّقدُ
أحسُّ أنباضـــه ، أنفاسه ، فمـــه
حتى توهمت أني والضيا أحـــدُ
أحسُّ ذاتيَ في الاغصانِ مورقةً
في الدُّجنِ شاتيةً ، في النهرِ تطّرد
أحسُّها موجـةً في البحر كافرةً ،
وقطرةً في جفون الفجر ترتعـــدُ
وضحكةً في مدار الأفق صالية ،
لكل حاشيـــةٍ من ضلعها قِصَدُ
كأنَّ هذا الوجود الرحب خابيةٌ ،
والذات خمرتها والماء والزبـــدُ .

★

كوّرتُ من اجلك الاكوان في خلدي ،
يا شعلةً في دمـــائي ليس تبترِدُ
لما تجلّت لي الأكوان في حللٍ ،
تجدُّ ألوانهـــا أصباغك الجـــدُدُ
ألقاك في الجذع دمع الجذع ، نضرته ،
وفي الأزاهر ، أنت العفو والسهـدُ
تقص عنك الروابي ، كل خافية ،
وينثر اسمك هدب الغيمـــة التئدُ
وامس شمتكِ في الأوداء عـارية ،
يلهو بصدرك ذاك الجـــدول الولد
وهفُّ دفئك يزقو في الحقول وفي
بال المواسم يجري حبـــك الغرد

★

مـــا فتق البرعم الغـــافي ونوّره
إلا انامل كفيك الـتي حمـــدوا
وأفرغ الضوء في الأجرام مغتلمـــاً
الا شرارة عينيـــك التي عبـــدوا
ما فجّر الماء في الأعمـــاق محتشداً
الا انابيب نهديـــك التي وردوا
ورنّح الأرض في حمّى تمزقهـــا
الا جذى منك لم يخمد لها وَقَـــدُ

هنري صعب الخوري

اليها محبي القصص من العامة ، لصعوبة لغتها واسلوبها ، فمالوا عنها الى القصص الشعبي . اما الخاصة فأنكروها لخيالهـــا ، ولقصصها المختلق المزعوم . ولكنهم أقبلوا عليها درساً وحفظاً لأنها متن شامل من متون اللغة . وبالرغم من ان عـــدداً من الكتّاب — كالزمخشري وابن الجـوزي والسيوطي وناصيف اليازجي — حاولوا محاكاة هذه المقامات ، فان واحداً منهم لم يبلغ شأو بديع الزمان او الحريري ، ولم يتحرر كاتب منهم من قيود الأسلوب وطريقة العرض فظلت المقامة فناً متبلوراً لا تطوّر فيه ولا تكيّف .

هذا هو الفن القصصي الوحيد الذي ظهر في الأدب العربي ، قبل العصر الحديث . وهو فن متميز له منشئون معروفون . اما ما وصلنا من قصص أخرى كرسالة الغفران فعلى ما بها من جمال العرض القصصي والخيال والسخرية اللاذعة فريدة في بابها لم يكتب لنا غيرها ابو العلاء او غيره . نعم ان كتاب حي بن يقظان قصة خيالية طريفة يذهب بعض المؤرخين الى انها أوحت الى دانيال ديفو بقصة روبنسون كروزو . ولكن ابن طفيل لم يكتبها على انها قصة ادبية بل على انها رسالة فلسفية .

جامعة مانشستر — **عبد العزيز عبد المجيد**